الفصل الأول

المملكة الإسلامية

فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) عادت المملكة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح العربى ؛ ونشأت فيها دولٌ صغيرة منفصل بعضها عن بعض ، كما كان الحال دائما فى تاريخ الشرق ، إذا استثنينا فترات قصيرة . وقد تمّ هذا الانقسام حوالى سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م .

وشرع المؤرخون يبيّنون الأجزاء التى آلت إليها المملكة ، كأنهم يصفّون حسابها ؛ وهم يعتمدون فى إحصائهم على مصدرٍ واحد ، كما يدلّ على ذلك ترتيبُهم لهذه الأجزاء : تغلّب كل رئيس على ناحيته ، وانفرد بها ، فصارت فارس والرىّ وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بُويه ، وكرمان فى يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مُضر فى أيدى بنى حمدان ، وأصبحت مصر والشام فى يد محمد بن طُغْج الأخشيد ، والمغرب وإفريقية فى يد الفاطميين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر الأموى ، وخراسان فى يد نصر بن أحمد السامانى ، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريديين ، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ؛ ولم يبق فى يد الخليفة إلا بغدادُ وأعمالها[1] . ويشبّه المسعودى فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م فِعْلَ

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٥ ص ٥٠٣ — ٥٠٤ ؛ تاريخ ابن الأثير ، الطبعة الأوروبية ج ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٢ ؛ تاريخ أبى الفدا تحت سنة ٣٢٤ هـ [ج ٢ ص ٣٩٨ من الطبعة الأوروبية] ؛ المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجوزى مخطوط برلين رقم ٩٤٣٩ بالمكتبة الأهلية ببرلين ص ١٥٨ ا ؛ الجزء الرابع من كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين أيضاً رقم ٩٤٩٢ ص ١٥٤ ب — ١٥٥ ا .

أصحاب الأطراف ، وتغلّبَ كل واحد منهم على الصقع الذى هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الإسكندر[١] .

على أن شبحاً لسيادة الخليفة ببغداد ظلّ وَهْمًا ماثلا فى الأذهان ؛ والمسعودى نفسه يتكلم عن « عمل » أمير المؤمنين ، وينقل عن الفزارى أنه « من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، ومن باب الأبواب إلى جدّة ستمائة فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ثلاثمائة فرسخ ومن مكة إلى جدّة اثنان وثلاثون ميلا »[٢] .

على أن أصحاب الأطراف أو ملوك الطوائف كانوا يعترفون بالسيادة العليا للدولة ، ويقدّمون لخليفة الدعاء فى المساجد ، ويشترون منه ألقابهم ، ويرسلون إليه الهدايا فى كل عام ؛ فمن ذلك أنه لما تمّ لعضد الدولة ابن بُوَيْه فتحُ كرمان فى سنة ٣٥٧ هـ ، أُنفِذَ إليه من الحضرة ببغداد عهدُ الخليفة وخِلَعُهُ والعقدُ على أعمال كرمان كلها[٣] . وكان مظهرُ سلطان الخليفة منصبَه الجليل فحسب ، وهو يشبه فى ذلك قيصراً من قياصرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا ، يحكم الأمة الألمانية وليس له عليها إلا سلطان قليل . ولكنَّ فكرة الدولة لم تَفْقِدْ ، رغم هذا ، ما كان له من القوة والسلطان ، حتى إن بنى أمية فى الأندلس لم يتخذوا لأنفسهم لقب الخليفة أو التسمية باسم «أمير المؤمنين» ، بل كانوا يسمون أنفسهم « بنى الخلائف » . ثم جاء الفاطميون فكانوا أول من خرج على هذه القاعدة ، فلم يكتفوا بأن يكونوا أمراء ذوى سلطة دنيوية فقط ، بل

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ، الطبعة الأوروبية ج ١ ص ٣٠٦ ، ج ٢ ص ٧٢ والصفحات التالية .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٧ — ٢٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٣٢٢ .

أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبي [عليه السلام] ، فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان في سنة ٢٩٧ هـ — ٩٠٩ م [١] . ثم أسرعت قيمة هذا اللقب إلى الهبوط حتى نجد حاكم سجلماسة ، جنوبي جبال أطلس ، وكان حاكما سُنّيًّا صغيراً ، يسمّى نفسه بأمير المؤمنين في سنة ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م وهو اللقب الذي كان من قبل يبعث في النفس رهبةً عظيمة [٢] .

ولما علم عبد الرحمن بالأندلس أن العلويين بإفريقية تلقّبوا بأمير المؤمنين اتخذ لنفسه أيضاً لقب الخلافة ، وتسمّى بأمير المؤمنين في سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م [٣] .

ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام وتعدّد أمراء المؤمنين أن يؤدي إلى ضيق في معنى الإسلام أو في الوطن الإسلامي ، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة ، سميت مملكة الإسلام — وهو الاصطلاح الذي لم يستعمله المسعودي — تمييزاً لها عن مملكة الكفر ، وقامت وحدةٌ إسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة . وهذا عكس ما نشأ عن اتحاد الإمبراطورية الألمانية في القرن التاسع عشر [٤] .

---

(١) كتاب البيون ص ٧٠ أ نقلا عن ابن الجزار للمؤرخ المغربي المتوفى عام ٣٩٥ هـ ١٠٠٤ م .

(٢) كتاب المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ، طبعة الجزائر عام ١٨٥٧ ص ١٥١ .

(٣) أبو الفدا تحت عام ٣٥٠ هـ ، نفح الطيب المقري ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٤) ربما يقصد المؤلف أن حركة الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر كان غرضها الوحدة ، ولكنها اقتصرت على بعض الألمان ، فلم تشمل النمسا وغيرها : وتُرك أهل هذه البلاد كأنهم أجانب ، وكانوا يعاملون في ألمانيا معاملة الأجانب . وهذا خلاف ما نشأ عن انقسام الدولة الإسلامية كما سيأتي . على أن كلام المؤلف ينطبق على الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر ؛ أما في عهد هتلر فقد اتجهت فكرة الوحدة الألمانية إلى إنشاء ما يسمى ألمانيا الكبرى على أساس الجنس واللغة ، ولقد ضمت النمسا وغيرها وبقيت أقليات صغيرة كان ضمها من أسباب الحرب الماضية . (المترجم)

يعتبر المقدسي أن مملكة الإسلام تمتد من كاشغر في أقصى المشرق إلى السوس الأقصى في المغرب، وأنها تُقْطَع في نحو عشرة أشهر[١] . أما عند ابن حوقل فحدود مملكة الإسلام هي : شرقيها أرض الهند وبحر فارس، وغربيها مملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي، وشماليها بلاد الروم وما يتصل بها من الأرمن واللّان والران والخزر والبُلغار والصقالبة والترك والصين، وجنوبيها بحر فارس[٢] .

وكان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه وتحت رايته، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلّون كما يصلّي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعُرفاً واحداً، وعادات واحدة . وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عام يضمن للمسلم حقّ المواطن، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية أن يمسّها أحدٌ، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترقّه على أي صورة من الصور[٣] . وقد طوّف ناصر خسرو في هذه البلاد كلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دون أن يلاقي من المضايقات ما كان يلاقيه الألماني الذي كان ينتقل في ألمانيا في القرن الثامن عشر بعد المسيح [عليه السلام] .

وكان الخليفة الفاطمي على أشد ما يكون من المنافسة لبني العباس، فكان يُخْطَب له في اليمن والشام زيادة على إفريقية ومصر، وكان لمذهب الفاطميين « دعاة منبثون في كل صقع وناحية »[٤] ؛ وتدلنا هذه الحكاية الصغيرة على أن

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن ١٨٧٧ ص ٦٤ .

(٢) المسالك والممالك، طبعة ليدن ١٨٧٢ ص ١٠ — ١١ .

(٣) لا يقول بغير هذا القول إلا بعض شرار الفرق كالقرامطة .

(٤) كتاب الفهرست لابن النديم، الطبعة الأوروبية ص ١٨٩ .

الخليفة الفاطمى كان يُنسب له فعل كل شىء : كان على صدر زبزب السلطان عضد الدولة صورةٌ لسبع من الفضة ، فسُرق ؛ وعجب الناس كيف كان هذا مع هيبة عضد الدولة المفرطة ، وكونه شديدَ المعاقبة على أقلّ جناية ؛ ثم قُلبت الأرض فى البحث عن السارق ، فلم يوقف له على خبر ؛ فقيل عند ذلك إن صاحب مصر ، يعنى الخليفة الفاطمى ، دسّ من فعل هذا[1] . وفى عام ٤٠١ هـ بلغ من جراءة قرواش بن المقلّد ، أمير بنى عقيل ، أنه خطب للحاكم بأمر الله فى أعماله كلها ، وهى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، وذلك تحت سمع العباسيين وبصرهم ، حتى أرسل الخليفة القادر إلى بهاء الدولة فسيّر إليه جيشاً ؛ فبعث قرواشُ يعتذر ، وقطع الخطبة العلويين ، وأعادها للقادر[2] . وكان الخليفة فى بغداد يجد بعض العزاء عما ضاع من سلطانه حين يرى مثلا أن السلطان محموداً صاحب غزنة ، وهو الأمير الذى أخذ نجمه فى الصعود ، يُظهر له احتراماً عظيما ، ويوقفه على انتصاراته ، ويشكو إليه ما يجد ؛ وفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) مثلاً أرسل الحاكم بأمر الله إلى السلطان محمود كتاباً يدعوه فيه إلى طاعته ، فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة القادر بعد أن خرّقه وبصق فى وسطه[3] .

وكان النزاع على أشد ما يكون فيما يتعلق بمكة والمدينة من بين الأراضى المقدسة ، لأن امتلاكهما أصبح له شأنٌ أكبر من ذى قبل ؛ فلم تكن توجد من قبل مناسبةٌ للبحث فى علامة الخليفة الحقيق ؛ أما الآن فقد ظهرت من ثنايا النزاع حول هذا المنصب نظريةٌ جديدة ، هى أن أمير المؤمنين الحقيق هو من كان

---

(١) المنتظم ص ١١٩ ا .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٦ — ١٠٧ ؛ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، نشرة W. Popper بكاليفورنيا ص ١٠٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٤ .

مَالِكاً الحرمين[١] . وهذه هى النظرية التى يُستند إليها اليوم فى إثبات حق العثمانيين فى الخلافة[٢] .

وكان العلويون فى هذا النزاع على الأراضى المقدسة هم الخصم الثالث الذى يأتى آخراً فيفوز بالغنيمة ، وكان الحسنيون منهم يتمتعون دائما حول المدينة بمال وجاه عظيم ، ولذلك استطاعوا أن يفتحوا مكة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى . دون أن يعترض عليهم الطرفان الآخران ، وهما العباسيون والفاطميون . ونرى فى أواخر هذا القرن فى البلاد المقدسة الحالة التى نراها اليوم : فالمدينة هى مركز الحركة السياسى — وقد كانت العاصمة السياسية قديماً — ومنها يسير التيار السياسى إلى مكة ، وكذلك نجد الأشراف سادة الحرمين[٣] .

وفى هذا العصر نجد مملكة الإسلام تعود من الناحية الجغرافية إلى حدودها الأولى ، وتفقد ممتلكاتها فى الغرب ، وكان البحر الأبيض المتوسط بعد عصر شارلمان قد أصبح بحراً عربيا ؛ واستطاع العباسيون منذ أوائل القرن الرابع أن يحافظوا على حدودهم الغربية من اعتداء البوزنطيين ، وكانت أخبار الانتصارات تُقرأ من أعلى المنابر ببغداد . وفى عام ٢٩٣ هـ — ٩٠٤ م أخذ قرصان المسلمين مدينة سالونيق ، ثانية مدن الدولة البوزنطية ، وهى مدينة كبيرة محصّنة بأسوار وحصون وأبراج ، وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً[٤] .

غير أن زحف الروم بدأ سنة ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م باستيلائهم على مدينة

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) والآن قد تغير هذا الموقف بعد إلغاء العثمانيين الخلافة منذ عام ١٩٢٤ . (المترجم)

(٣) Snouck Hurgronje, Mekka 1. 69 ، وقد تغير الموقف اليوم فى الحجاز تغيراً كبيراً . (المترجم)

(٤) Joannes Cameniata, Corpus script. Historiae Byzant., Bonnae وكان هذا المؤلف إذ ذاك من بين الأسرى .

ملطية[١] . وفي عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م وافت جيوش الروم إلى ديار بكر ، وبلغوا قرب نصيبين ، وطلبوا من أهل الرها أن يدفعوا إليهم المنديل الذي كان المسيح عليه السلام مسح به وجهه ، وصارت صورة وجهه فيه ، وذلك في مقابل إطلاق عدد من أسرى المسلمين ؛ وكوتب الخليفة المتقي في ذلك فاستحضر الوجوه من أهل مملكته لأخذ رأيهم ، وقام جدال عظيم بينهم ، فذكر البعض أن هذا المنديل منذ الدهر الطويل في كنيسة الرها ، لم يلتمسه ملك من ملوك الروم ، وأن في دفعه إليهم غضاضة على الإسلام ، لأن المسلمين أحق بمنديل عيسى عليه السلام ، وفيه صورته . فقال علي بن عيسى ، وهو الوزير المسن إذ ذاك : إن خلاص المسلمين من الأسر ، وإخراجهم من دار الكفر ، مع ما يقاسونه من الضنك والضر أوجب وأحق ، ووافقه جماعة ممن حضر على قوله ، وسُلّم المنديل إلى الروم ، فحملوه إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك وكبار رجال الدولة لاستقباله ، ومشى أهل الدولة بأجمعهم بين يديه بالشمع الكثير ، وحُمل إلى الكنيسة العظمى أجيا صوفيا ، ومنها إلى البلاط[٢] .

ويشكو المسعودي من « ضعف الإسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس وتغلبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد مضي الإسكندر ... ولم يزل الإسلام مستظهراً إلى هذا الوقت ،

---

(١) مكسويه ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٢) تاريخ سعيد بن البطريق ، يليه تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي مخطوط رقم ٢٩١ بالمكتبة الأهلية بباريس ص ٨٠ ا — ب ، على أن المؤلف يشير أحياناً إلى نسخة مطبوعة لعلها التي ذكرها بروكلمان في ملحق كتابه : تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٢٢٨ من طبعة ليدن ١٩٣٧ ؛ ولذ وحدت الإشارة فجعلتها كلها بحسب مخطوط باريس لصعوبة الحصول على النسخة المطبوعة . (المترجم)

فتداعت دعائمه ، وهي أسّه ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، في خلافة أبي إسحاق إبراهيم المتّقي لله أمير المؤمنين ، والله المستعان على ما نحن فيه »[١].

أما الإمبراطورية البوزنطية فقد أسعدها الحظ في هذا القرن بثلاثة قوّاد ذوي كفاية نادرة ، تعاقبوا على عرشها ، وهم نقفور فوكاس (Nikephoros Phokas) وزيمسكيس (Zimiskes) ، وباسيليوس (Basilios) . وقد مكث آخرهم واكفؤهم على رأسها خمساً وخمسين سنة . وفي سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م فتح نقفور جزيرة أقريطش بعد حصار دام ثمانية أشهر[٢] ، وكانت هذه الجزيرة أكبر عش للقرصان المسلمين . وبعد خمس سنين سقطت قبرص في يد الروم ، فلم تعد للمسلمين السيادة المطلقة التي كانت لهم في البحر الأبيض المتوسط . وفي سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ورد نقفور حلب ، وفي سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م فتحت مدينة المصيصة[٣] ، وأخيراً وقعت طرسوس ، مع ما سُجِّل لأهلها من شجاعة ، وكانت أكبر حصن للإسلام في وجه المغيرين عليه ؛ وقد أخذها الروم بعد أن عظُم بها الغلاء والوباء حتى بلغ الأمر بالناس إلى أكل الميتة . وفي عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م فتح نقفور حماة وحمصا ، وأخذ من حمص رأس القديس يوحنا المعمداني ، وكذلك فتح مدينة اللاذقية . وفي الشتاء التالي سقطت مدينة أنطاكية بعد أن كان يُخَيَّل للناس أنها لن تُغلَب[٤] .

ولما أغار الروم في سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م على الرُّها ونواحيها . وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ودخلوا ديار بكر ، فغنموا واستباحوا وقتلوا وسبوا

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٣ والتي تليها .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٩١ ب .

(٣) نفس المصدر ص ٩٤ ب .

(٤) نفس المصدر ص ٩٥ ب ؛ Michael Syrus, S. 551 .

وعرّبوا البلاد ، فقصد بغدادَ من بها من أهل تلك البلاد مُسْتَنْفِرين ، واجتمع معهم أهلُ بغـداد فى الجوامع ، وأصابهم جميعاً غضبُ اليائسين ، فـكسّروا المنابر ، ومنعوا الخُطَب ، وقصدوا دار الخليفة ، فحاولوا الهجوم عليه ، واقتلعوا بعض شبابيك دار الخلافة ، وخاطبوا الخليفة بالتعنيف ، فرماهم الغلمان بالنشاب من الرواشن[1] . وقد اجتمع من استنفار العامة الغُزاة جمعٌ عظيم من العامة والأجلاد يبلغ زهاء ستين ألفاً ؛ فطلب عزُّ الدولة بختيار بن بويه من الخليفة المطيع لله أن يبعث له مالاً يُخرجه للغُزاة ، فامتنع الخليفة بحجة أن الأموال لا تُجْبى إليه ، فلا تلزمه النفقةُ على الغزاة ، وهدّد بالاعتزال ، وتردّدت الرسائل بينه وبين بختيار ، حتى بلغ الأمر التهديد ، فبذل المطيع أربعمائة ألف درهم ، واحتاج فى ذلك إلى بيع ثيابه وأنقاض داره من ساج ورصاص ، وشاع بين الحجّاج أن الخليفة قد صودر » . ثم تحزّب الغُزاة إلى سنّيين وشيعة ، ووثب بعضهم على بعض ، وأعرضوا عن ذكر الروم جانباً ، ولما قبض بختيارُ المال صرفه فى مصالحه ، وبطل حديث الغُزاة[2] .

وفى عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م فتحت بعلبك وبيروت ، وأخذت من بيروت صورة المسيح التى تنسب إليها الخوارق ، ونقلت إلى الـكنيسـة التى أسسها زيمسكيس فى قصر البرنز بالقسطنطينية . أما أهل دمشـق فقد اضطروا إلى أن يفتدوا أنفسهم بدفع ستين ألف دينار ، يحملونها للروم فى كل عام[3] .

---

(١) يحى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ ا ، والمنتظم ص ١٠٤ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠١ — ٤٠٠ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، طبعة ليدن ١٨٥٥ ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ويحى بن سعيد ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وأبو المحاسن فى نفس المصدر .

(٣) يحى بن سعيد ص ١٠٢ ب ، grand palais de Constantinople, Paris, 1910, p. 52

أما فى جنوب المملكة الإسلامية فقد حافظ المسلمون على الحدود التى كانت للرومان قديماً ، وصدّوا هجمات النوبة . ويحدثنا المسعودى وهو يعمر فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أن النوبة كانوا قد صولحوا منذ ولاية عبد الله بن سعد على رءوس من السبْى معلومة ، وأن هذا السبى صار سنّة جارية فى كل سنة إلى عهده ؛ ويُدعى هذا السبْى بأرض مصر والنوبة بالبَقْط ، ويقبضه نائب أمير مصر المقيم ببلاد أسوان[1] . وفى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م سار عسكر مصر وفتحوا مدينة أبريم ، وهى آخر حصون النوبة مما يلى مصر[2] . وفى أقصى الجنوب الغربى دخلت فى الإسلام مدينة أودغشت ، وهى المدينة التجارية الكبرى فى غرب الصحراء الإفريقية ، فصارت هذه المدينة أقصى نقطة للإمبراطورية الإسلامية من ناحية وسط إفريقية[3] .

على أنه إذا كان سلطان الإسلام كان ينحسر عن بلاد فى الغرب ، فقد كان يقابل ذلك تقدُّمُه المستمر فى الشرق . ففى عام ٣١٣ هـ — ٩٢٥ م فتحت بلوخستان ، وكانت حتى ذلك الحين على الوثنية[4] . وفى سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م أسلم من الأتراك نحوٌ من مائتى ألف خركاة[5] ؛ وعلى حين أنه فى أواخر

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٩١ ب ؛ وكتاب الخطط المقريزى طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) ولقد ذكر المهلبى الذى كتب فى عام ٣٧٠ هـ . أن ملك كوكو بالسودان كان يظاهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظاهر به (معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٣٢٩ من الطبعة الأوروبية) ، ولكن البكرى وابن سعيد قالا فيما بعد إنهم وثنيون (انظر J. Marquart, Beninsammlung, S. XCVII) .

(٤) مكسويه ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٥) مكسويه ج ٦ ص ٢٤٠ ، وكتاب العيون ص ٢٦٩ ا .

القرن الثالث الهجرى كانت أسبيجاب[١] آخر مدينة المسلمين مما يلى الترك ، فإن دخول بغراخان فى سلك أمراء المسلمين جعل حدود المملكة الإسلامية تمتد إلى حوض نهر التاريم . ويعتبر المقدسى أن مملكة الإسلام تنتهى حدودها إلى كاشغر[٢] . وفى عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٦ م كان أهل بلاد خُتَنْ مسلمين[٣] . وفى ذلك الوقت شمّر السلطان محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، وأخضع بلاداً واسعة من بلاد الهند لسلطان الإسلام ، وكانت علامة الثقة عند ملوك الهند أنهم يقطعون أصابعهم ، « وكان عند السلطان محمود من أصابع من هادنه الكثير »[٤] .

ولا نريد أن نتعرض هنا للبحث فيما إذا كان انقسام دولة بنى العباس دليلا من دلائل التدهور ، إذا نظرنا فى هذه المسألة بمنظار هذا العصر الذى نعيش فيه والذى يحكم فى مثل هذه الأحوال على أساس الكمّ وعلى أساس ما يسمونه بالوحدة ؛ على أننا نستطيع أن نقول إن الإمبراطوريات العالمية الكبرى ترتكز

---

(١) كتاب البلدان لليعقوبى طبعة ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٢٩٥ . وقد قال أحد الفرس المتأخرين إن أسبيجاب هى مدينة صيرم التى تقع على مسافة سبعة عشر كيلو متراً شرق كُنْكِنت ، وهذا يتفق مع تعيين ابن خرداذبة لمكانها . وقد وافق على هذا أيضاً ليقى (Levih : Archaeological Journey to Turkestan, p. 35.) ، وجرينار (Grenard : JA, 1900, t. 15. S. 27, Anm. 4.) ؛ ولكن هذا غير دقيق ، لأن السمعانى (المتوفى عام ٥٦٢ هـ — ١١٦٧ م) ، وكان يعرف آسيا الوسطى جيداً ، يتكلم عن أسبيجاب باعتبارها مدينة كبرى (انظر كتاب تقويم البلدان لأبى الفدا طبعة باريس ١٨٤٠ ص ٤٩٤) ؛ ويصرح ياقوت فى معجم البلدان (ج ١ ص ٢٥٠) بأن أسبيجاب خربها التتر عام ٦١٦ هـ — ١٢١٩ م ، ولكن الرحالة تشاو تشنج (Caucung) يحكى أنه فى نوفمبر سنة ١٢٢١ م نزل بمدينة تسمى ساى — لان : (انظر Bretschneider, Mediaeval Researches. 1, S. 74)

(٢) المقدسى ص ٦٤ .

(٣) J. Marquart, Guwainis Bericht über die Bekehrung der Uiguren, SBBA, 1912, S. 496.

(٤) المنتظم ص ١٨١ — ب

دائماً إما على شخص زعيم عبقرى وإما بنوع خاص على وجود طائفة من أهل الخشونة والقوة الوحشية ؛ ووجود هذه الإمبراطوريات على كلتا الحالتين وجود غير طبيعى . على أننا لا نجد فى مصر على عهد الإخشيد وكافور والفاطميين ما يدل على تأخرها ، بل هى قد كانت منيعة الجانب ، وافرة العدة ، عظيمة الخيرات ؛ وكذلك يشهد الرحالون بمناقب السامانيين وعدلهم وشريف أعمالهم وما كان لمملكتهم من عظمة ومَنَعَة[1] . أما بغداد فهى التى قد تنكرت لها الأيام ، وذلك منذ عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م حين أرهبها العيّارون ، وعاثوا فيها فساداً ، وأعملوا فيها النهب[2] لأول مرة ؛ ثم صار أمرهم يتفاقم كلما ضعفت الحكومة ، وكانت أسوأ أيامها السنوات التى أفلت فيها الزمام من يد الحكومة فيما بين مقتل بجكم ودخول بنى بويه ، أى ما بين عامى ٣٢٩ هـ و ٣٣٤ هـ = ٩٤٠ — ٩٤٥ م ؛ وكأنما كان سقوط رأس القبة الخضراء التى فى قصر المنصور بمدينة السلام عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م إرهاصا بأفول نجم بنى العباس ، وكانت تلك القبة « تاج بغداد وعلَم البلد » ؛ وكان ليلة سقوطها مطرٌ عظيم ورعد وبرق شديد[3] . وفى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م استطاع ابن حمدى ، وهو لص ظهر ببغداد على رأس جماعة من أصحابه ؛ أن ينتهب أموال أهل بغداد ، وكان قد أعيى السلطانَ أمرُه ، وخلع عليه ابنُ شيرزاد ، ووافقه على أن يصحّح فى كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو وأصحابه ؛ فكان يستوفيها ويأخذ البراءات وروزات الجهبذ بما يؤديه أولاً فأولا .

وكان ابن شيرزاد فى ذلك الوقت كاتباً للقائد التركى المسمى توزون ، فكان

(١) ابن حوقل ص ٣٤١ والصفحات التالية .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٢ .
(٣) المنتظم ص ٦٧ ا ، وكتاب العيون ص ١٩٩ ب .

أمرُ الحكومة في يديه ، ومضى على الناس في أيام ابن حمدى وقتٌ تحارسوا فيه بالبوقات في الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفا من كبسات هذا اللص وأصحابه[١] وخلت المنازل ببغداد من أهلها ، وصاروا يطلبون من يسكن الدار بأجرة يُعطاها ليحفظها ، وأغلقت عدة حمامات ، وتعطلت أسواق ومساجد[٢] ، وأضيف إلى هذا ما كان بين السنيّين والشيعة من نزاع دائم ، فكانوا يُلقون النار بعضهم على بعض دائما . وفي سنة ٣٦١ هـ — ٩٧١ م قامت بالكرخ فتنةٌ ، فأرسل الوزير حاجبه لقتال العامّة ، وكان شديد العصبية للسنّة ، فاضطر إلى إلقاء النار في أماكن كثيرة ليقضي على الفتنة ، فاحترق الكرخ حريقاً عظيما ، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان ، وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال ما لا يُحصى . وبدأ الناس ينتقلون من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ، ولا يزال هذا الجانب إلى اليوم أعمر وأكثر سكاناً[٣] . وفي عام ٣٣٢ هـ — ٩٧٢ م تولى ابن شيرزاد القيادة بعد موت توزون ، فأخذ في المصادرات ، وقسّط على العمال والكتاب والتجار وسائر الناس ببغداد مالاً لأرزاق الجند ، وكثرت الضرائب حتى تهارب الناس من بغداد وفسد الأمن ، وكثرت كبسات اللصوص ، حتى إنهم دخلوا دار أحد القضاة ، فتسلق حائطاً لينجو منه ، فوقع ومات[٤] .

وفي هذا العصر يصف المقدسي بغداد ويقول إنها « كانت أحسن شيء للمسلمين ، وأجلّ بلد ، وفوق ما وصفنا ، حتى ضعُف أمر الخلافة ، فاختلّت ،

---

(١) كتاب العيون ص ٢٠٦ ب .

(٢) المنتظم ص ٧٢ أ

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ أ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٦٢ .

(٤) كتاب العيون ص ٢٢٩ ب — ٢٣٠ أ

وخفّ أهلها ؛ فأما المدينة فخراب ، والجامع فيها يُعمر فى الجُمَع ، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب … وهى فى كل يوم إلى ورا ، وأخشى أنها تعود كسامرّا ، مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان[1] » . ويذكر الصابى عن جماعة من الناس أنهم فى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠١ م شاهدوا صينيّة الكرخ فيما بين طرف الحذّائين والبزّازين ، والفواخت والعصافير تمشى فى أرضها انتصافَ النهار ، وفى الوقت الذى جرت العادة بازدحام الناس فيه بهذا المكان ؛ وذلك لأن البلد كان قد خربَ ، وانتقل أهله منه[2] . ولأجل هذا نجد المقدسى يشيد بذكر مدينة الفسطاط بمصر ، ويقول إنها « ناسخ بغدّاد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجلّ من مدينة السلام »[3] . ولقد ظلت عاصمة مصر منذ ذلك الحين أكبر مدن الإسلام .

(١) المقدسى ص ١٢٠ .

(٢) كتاب تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء لأبى الحسن الهلال بن المحسّن بن إبراهيم الصابى ، نشرة أمدروز ببيروت سنة ١٩٠٤ ، ص ١٣٩ .

(٣) المقدسى ص ١٩٧ .